



شرح مسائل الجاهلية

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٧/٠٨ هـ

الدرس الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

فإن معرفة المسلم بالشّر وأُمور الجاهلية من أجل أن يحذر ذلك ويتجنبه ويُحذّر إخوانه المسلمين منه مطلبٌ عظيم جداً ، وكثيرٌ من الناس إنما أُتي حيث وقع في الجهل والضلال والباطل بسبب عدم معرفته بالشّر ووسائله وأسبابه ، ولهذا قيل قديماً : «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي» الذي لا يعرف الشّر كيف يتقيه! ولهذا جاء في صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الخير ، وكنت أسأله عن الشّر مخافة أن يدركني» ، وأهل العلم يقولون: «إن في تعريف الشّر تحذيراً من باطله» ، وهذه فائدة عظيمة ؛ إن في تعريف الشّر تحذيراً من باطله ؛ أي إذا عرف المسلم الشّر وعرف خطورته وعرف أضراره عليه في الدنيا والآخرة فإن هذا أعظم عونٍ له بعد الله عز وجل على توقي الشّر والحذر منه . ولهذا -أيها الأخوة الكرام- كما أن المسلم مطالب بمعرفة الخير ليفعله فإنه في الوقت نفسه مطالب بمعرفة الشّر ليتقيه ، وكما أن كتاب ربنا عز وجل بيّن لنا الخير لنفعله أيضاً بيّن لنا الشّر لنجتنبه ، وهكذا سنة نبينا صلوات الله وسلامه عليه ، بيّن لنا جلّ وعلا الشّر وبيّن لنا صفات أهل الشر لتتقي الشّر ولتتقي أهله ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] أي: لتتضح للناس فيحذروها ويتقوها ويتقوا أعمالهم وخصالهم وصفاتهم، ولهذا أيضاً قيل:

عرفتُ الشّر لا للشّر ولكن لتوقيه فإن من لم يعرف الشّر من الناس يقع فيه

الذي لا يعرف الشّر ربما وقع في الشّر من حيث ظنه حقاً وهدى . وعندما تضعف معرفة الناس بالشّر ووسائله وأسبابه ربما وقعوا في صور كثيرة منه وهم يظنون أنهم لم يقعوا في الشّر بعد ، بل إن الأمور ربما اشتبهت عليهم ؛ فظنوا البدعة سنة ، والسنة بدعة ، والحق ضلالاً ، والضلال حقاً ، فتختلط الأمور وتلتبس ، ولا يستقيم للمسلم أمره في هذا الباب إلا إذا عرف الحق فلزمه وعرف الشّر فحذر منه واجتنبه .

ويأتي هذا الكتاب الذي بين أيدينا وعنوانه «مسائل الجاهلية» أو «المسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية» يأتي ضياءً لأهل الخير في باب عظيم تمس الحاجة إلى معرفته ؛ ألا وهو معرفة مسائل الجاهلية التي خالفها الرسول عليه الصلاة والسلام وجاء بمخالفتها وجاء بالتحذير منها .

ولك أن تسأل هنا : ما حاجتنا إلى معرفة مسائل الجاهلية التي جاء نبينا صلى الله عليه وسلم بمخالفتها والتحذير منها؟

والجواب: أن الله سبحانه وتعالى قضى قضاءً كونياً قديراً أخبر عنه رسوله عليه الصلاة والسلام أن هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها شبراً شبراً في الحديث الصحيح قال: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً ذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ؛ فخصال الجاهلية التي خالفها النبي عليه الصلاة والسلام ونهى عنها وحذر منها في أحاديثه صلوات الله وسلامه عليه سيوجد في هذه الأمة من يتبعها بين مُقلِّ ومستكثر ، لكن لابد أن يوجد في هذه الأمة من يتبعها لأن الله عز وجل قضى ذلك قضاءً كونياً أخبر عنه نبينا عليه الصلاة والسلام في الحديث المتقدم ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً ذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ؛ وهذا خبر من النبي صلى الله عليه وسلم خرج مخرج التحذير للأمة حتى يحذروا من خصال الجاهلية ويحذروا مما كان عليه أهل الجاهلية . ولا يمكن للإنسان أن يحذر خصال الجاهلية إذا لم يكن يعرفها . فإذاً معرفة خصال الجاهلية من أجل أن نتقيها وأن نحذر منها لا شك أنه من المطالب المهمة ولا سيما في زماننا هذا الذي كثر في الناس إتباع سنن الجاهلية سواءً في أبواب العقائد أو في أبواب العبادات أو في أبواب المعاملات والسلوك ، ولا سيما أيضاً مع كثرة وسائل الاتصال بين الأمم والشعوب وانفتاح الناس على أمم الكفر وعاداتهم وعقائدهم ومشاهدتهم لذلك كله ؛ فإن هذا مع أيضاً ضعف العلم بدين الله تبارك وتعالى أوجد في كثير من الناس شيئاً من خصال الجاهلية التي حذر منها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

وأقول في ختام هذه المقدمة : كل منا سيقف أمام الله عز وجل يوم القيامة والله عز وجل سائله ، والله عز وجل إنما خلقنا في هذه الحياة الدنيا لنستقيم على طاعته ولنلزم أمره ، ولنتبع أنبياءه ورسله عليهم صلوات الله وسلامه ، وأن نحذر من كل باطل كان عليه الناس ، والباطل هو: كل ما كان على خلاف هدي الأنبياء والمرسلين . فالأنبياء جاءوا بكل خير وحذروا من كل شر كما قال عليه الصلاة والسلام: ((ما بعث الله من نبي إلا دعا أمته إلى خير ما يعلمه لهم، وحذّره من شر ما يعلمه لهم)) ؛ فالأنبياء جاءوا بكل خير وحذّروا من كل شر ، وهكذا يجب أن يكون المسلم محافظاً على ما جاء به الأنبياء من الدعوة إلى الخير ، وحذراً كل الحذر مما نهى عنه الأنبياء من الشرور والأباطيل .

ومن نعمة الله علينا أمة محمد عليه الصلاة والسلام أن الله عز وجل أذهب بدعوته صلى الله عليه وسلم باطل أهل الجاهلية وضلالهم ، وانظر أيه الأخ الكريم إلى ذلك الموقف العظيم المبارك الذي وقفه نبينا عليه الصلاة والسلام عندما حج حجة الوداع ، ومكة قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام اجتمع فيها الباطل بكل صنوفه وبجميع ألوانه، الباطل فيما يتعلق بالعقائد ، والباطل فيما يتعلق بالعبادات ، والباطل فيما يتعلق بالدماء والأنفس وغير ذلك ، فبعث النبي عليه الصلاة والسلام ومكة كان قد خيم عليها الباطل والضلال ، ليس هذا فحسب ؛ بل إن

الباطل خيّم على الأرض بأجمع وغطى الأرض كلها إلا قلة من الناس بقايا من أهل الكتاب ، وإلا فإن الجاهلية عمّت وطمّت وخيّمت على الأرض برمتها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إن الله نظر إلى الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب))؛ كانت الأرض كل من عليها ممقوت عند الله عز وجل مُبغض عنده إلا بقايا إلا قلة ، نزر قليل من أهل الكتاب ، وأما الأرض برمتها فقد خيّمت عليها الجاهلية وضربت بأطنابها في جميع أطرافها . ثم يَمُنُّ الله عز وجل على الأمة ببعثة محمداً عليه الصلاة والسلام ، وينشأ في هذا المجتمع الذي خيّمت فيه الجاهلية ويبدأ بالدعوة ، وتبدأ الدعوة إلى الإسلام في غربة كما قال عليه الصلاة والسلام: ((بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء)) ؛ فبدأ غريباً ، كل من يدعوه إلى الإسلام يستنكر هذه الدعوة لأنهم لا يعرفون شيئاً من الدين ، لا يعرفون الإيمان الصحيح ، لا يعرفون العقيدة ، خيّمت الجاهلية ، جاهلية عامة طبّقت الأرض إلا بقايا من أهل الكتاب ؛ فُبعث عليه الصلاة والسلام في الناس وأخذ يدعو ، وبدأت الدعوة تنتشر وضياؤها يشعّ ونورها يضيئ وتنتشر في الأرض ويكثر الأتباع إلى أن يشاء الله سبحانه وتعالى ويأتي عليه الصلاة والسلام إلى مكة ويحج ومعه الآلاف على الإسلام وعلى الدين الصحيح وعلى العقيدة الصحيحة ، ويخطب في الناس خطبةً عظيمة ويقول في تلك الخطبة وهو موضع شاهدنا لحديثنا يقول في تلك الخطبة: ((إن كل أمر من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين)) ثم أخذ يفصّل في ذكر بعض أمور الجاهلية في الأموال وفي الدماء إلى آخر ذلك.

وانظر النعمة استشعر هنا النعمة العظيمة الكبيرة بالإسلام ؛ أن مكة التي كانت خيّمت عليها الجاهلية وطبّقت أطرافها بعد سنوات قلائل بمَنّ الله تبارك وتعالى وفضله يخطب النبي عليه الصلاة والسلام ومكة ممتلئة بالمسلمين المعتنقين للدين الصحيح ويعلن أن كل أمر من أمر الجاهلية تحت قدميه. ولهذا أيّه المسلم يجب عليك أن تمضي بعزة الإسلام وأمور الجاهلية تضعها تحت قدميك . إياك أن تُفَتّن بمشرك أو بيهودي أو بنصراني أو بأي دين من أديان الباطلة ؛ أنت المسلم ، أنت المسلم أنت الذي تحمل الدين الصحيح الدين الحق ، أنت الذي منّ الله عز وجل عليك بمعرفة الإسلام ، فكيف ترضى لنفسك بالدون أن تتشبه بهذا أو ذاك من الكفار الذين لم يعرفوا هذا الدين الصحيح!! ولهذا كل أمر من أمر الجاهلية ضعه تحت قدميك وامضي في حياتك معزراً مكرماً ماضياً على دينك الصحيح مستقيماً عليه . يعينك على ذلك أن تعرف خصال الجاهلية وأمورهم وأعمالهم وصفاتهم حتى تكون منها على حذر.

واسأل الله عز وجل أن يقينا وإياكم ، وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل ، وأن يبصرنا بديننا ، وأن يعيذنا جميعاً من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً ، وأن ينفعنا بهذا الكتاب النافع العظيم «كتاب مسائل الجاهلية» للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى . والآن نشرع في القراءة بهذا الكتاب .

قال الإمام الأَوّاب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

هذه أمور خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عليه أهل الجاهلية الكتابيين والأُميين مما لا غنى للمسلم عن معرفتها . فالضدّ يُظهر حسنه الضدّ وبضدّها تتبين الأشياء

قال رحمه الله: «هذه أمورٌ خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عليه أهل الجاهلية الكتابيين والأُميين» قوله «هذه أمور» ؛ يفيدك أنه لم يقصد بهذا الكتيب حصر المسائل وجمعها كلها ، وإنما أراد أن ينبه على أخطر الأمور وأعظم المسائل مسائل الجاهلية خطورةً ، سواءً من هذه المسائل ما كان كفرًا مخرجاً من الملة أو دون ذلك ، أو أيضاً ما كان سبباً لبقائهم على الضلال الذي هم عليه ؛ فهذا أيضاً من خصال الجاهلية التي ينبغي أن تُعرف. كما أننا ينبغي أن نعرف أعمال الجاهلية نفسها أيضاً نعرف الأسباب التي منعتهم من قبول الحق ، لأن هذا من جاهليتهم ؛ كامتناعهم من قبول الحق لأجل الآباء أو لأجل الكثرة أو نحو ذلك من الأمور فكل ذلك جاهلية. فإذاً هذا الكتاب لم يحصر مسائل الجاهلية ولم يأت عليها جميعها ولا أراد ذلك المصنف ولا قصده ، وإنما قصد أن ينبه على أبرز وأهم المسائل التي خالف فيها النبي صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية الكتابيين والأُميين .

وقوله رحمة الله «أهل الجاهلية» ؛ الجاهلية : هذه نسبة إلى الجاهل ، والجاهل مشتق من الجهل ؛ فالمراد بالجاهلية: هم أهل الجهل ، والمراد بقوله «أهل الجاهلية من الكتابيين والأُميين» أي: أولئك الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام وكان قد خيّم عليهم الضلال وطبّق عليهم الجهل والباطل ، فكانوا في ضلال مبين وعماية مطبّقة عليهم إلا قلة قليلة ونزرٍ يسير من بقايا أهل الكتاب بقوا على التوحيد الخالص.

قال « أهل الجاهلية الكتابيين» أي أهل الكتاب ، والمراد هنا: اليهود والنصارى ؛ فإنهم أهل كتاب ولكن الكتاب الذي بأيدي اليهود والكتاب الذي بأيدي النصارى كتاب محرّف ومبدّل ومغيّر ، وأصبح فيه بدل التوحيد شركاً ، وبدل الهدى ضلالاً ، وبدل السنن والحق بدعاً وضلالاً وأموراً ابتدعوها واخترعوها ، فهي كتب محرفة ومبدلة، ولكن يقال لهم «أهل كتاب» باعتبار أنهم في الأصل على كتاب نبي من أنبياء الله ولكن طرأ عليهما ما طرأ بسبب أئمة الضلال فيهم من التحريف والتغيير والتبديل ، كما بيّن الله عز وجل ذلك في مواضع من كتابه تبارك وتعالى.

«والأُميين» المراد بهم: المشركين من غير أهل الكتاب ، وهم من كانوا على الشرك. والمشركون كانوا على أصناف كثيرة من الشرك ولم يكونوا على صنف واحد ؛ منهم من يعبد الشمس ، ومنهم من يعبد القمر ، منهم من يعبد الكواكب ، منهم من يعبد الأشجار والأحجار ، ومنهم من يعبد الصالحين والملائكة والأنبياء إلى غير ذلك ، فكان شركهم منوعاً وكانوا مختلفين في اتخاذ الأرباب كلّ يعبد ما يهواه.

قال: «ما لا غنى لمسلم عن معرفته» انتبه لهذه الكلمة المهمة ؛ الشيخ رحمة الله عليه يقول: لا غنى لمسلم أن يعرف هذه الأمور؛ لماذا؟! لك أن تتساءل ، وأجبت عن ذلك فيما تقدم . يقول : «لا غنى لمسلم عن معرفته» أي أن المسلم لا يستغني عن معرفة هذه الخصال التي ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى لماذا؟! لأجل أن يحذرها وأن يتقيها ، وكما قدمت «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟!» الذي لا يدري ما هو الشيء الذي يتقيه كيف يكون منه التقوى؟! وتقوى الله عز وجل: العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله. بهذا عرّفها أهل العلم ؛ فكيف يترك الإنسان معصية الله دون أن يعرف المعصية ودون أن يعرف الجاهلية ودون أن يعرف الباطل؟! فلهذا يقول رحمة الله عليه : «مما لا غنى لمسلم عن معرفته» .

ثم إن معرفتك بالباطل يفيدك فائدتين:

● الفائدة الأولى : أن تحذر الباطل .

● والفائدة الثانية: يعرفك بحسن الحق وجماله ، لأن الضد يُظهر حسنه الضد ؛ مثل لو قال لك شخص : عرّفني بالنور وجمال النور وحسنه وشدة حاجتنا إليه ، فقلت له: أرايت لو أنك في مكان مظلم وليس عندك نور وتريد أن تقرأ لا تستطيع وتريد أن تمشي فتتعثر في الطريق وتصف له الظلام ؛ وصفك الظلام له هو بحد ذاته بيانٌ لحسن النور.

قال لك شخص: حدثنا عن العافية والصحة وحاجتها؟ فقلت: أرايت عندما يكون الشخص مريض كيف لا يستطيع أن يفعل كذا ولا يستطيع أن يفعل كذا ويحس بالآلام ولا ينام ولا يرتاح إلى آخره ؛ يقول لك: الحمد لله والله العافية أمرها عظيم، أحسسته بجمال العافية بتحديثه عن ضدها .

فإذاً يُظهر حسن الشيء: بيان ضده ؛ فلو أردت أن تعرّف شخصاً ما بحسن التوحيد ويثبت له قبح الشرك ، بيانك له قبح الشرك بحد ذاته يعدّ بياناً لحسن التوحيد. ولهذا قال الشيخ هنا أورد هذا البيت قال:

فالضدّ يُظهر حسنه الضدّ وبضدّها تميّز الأشياء

إذاً معرفة مسائل الجاهلية يفيدك من جهتين:

الجهة الأولى: أنك تحذر هذه الخصال ، وتسأل الله تبارك وتعالى أن يعيدك منها وأن يحميك من الوقوع فيها .

الفائدة الثانية: يفيدك غبطة وفرحاً بفضل الله عليك بالإسلام ؛ أنت عندما تقرأ هذه الخصال وتستشعر معافاة الله سبحانه وتعالى لك منها ووقايتك منها تقول: الحمد لله الذي عافانا من هذه الأمور ومنّ علينا بالإسلام الصافي والدين النقي ؛ فتزداد تمسكاً وفرحاً بدينك الصحيح الذي منّ الله تبارك وتعالى عليك به. وهذا أمر يلاحظه الإنسان عندما يرى المبتلين بأبدانهم ، عندما يرى المبتلى يحس بالعافية يقول: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاه فيه .

فهذه فائدة عظيمة أنت إذا قرأت خصال الجاهلية وعرفتها يفيدك أولاً: إتقاء هذه الخصال والبعد عنها ، ويفيدك ثانياً: معرفة بقدر قيمة ومكانة الدين العظيم الذي من الله تبارك وتعالى عليك به ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] .

قال رحمه الله تعالى :

فأهم ما فيها وأشدّها خطراً : عدم ايمان القلب بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن انضاف إلى ذلك استحسان ما عليه أهل الجاهلية تمت الخسارة ، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] .

بدأ الشيخ رحمه الله ببداية مهمة ، بل بقاعدة عظيمة وأصل متين يفيدك في جميع ما سيأتي من مسائل الجاهلية التي ذكرها رحمه الله تعالى محذراً منها ؛ فيقول رحمه الله: «فأهم ما فيها وأشدّها خطراً» ؛ أهم ما فيها: أي الجاهلية ومسائل الجاهلية ، وأشدّها خطراً : «عدم ايمان القلب بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم» إلى آخر كلامه

أولاً هذا يفيدنا فائدة مهمة في هذا الموضوع ، ألا وهي : أن خصال الجاهلية التي كانوا عليها وجاء الإسلام بمحاربتها ليست على مستوى واحد ، متفاوتة بعضها أخطر من بعض ، ولهذا قال لك الشيخ هنا: «فأهم ما فيها وأشدّه خطراً» ، إذاً هي ليست في الخطورة على درجة واحدة بل متفاوتة في الخطورة ؛ منها ما هو كفر أكبر ناقل من ملة الإسلام ، ومنها ما هو دون ذلك ليس كفراً أكبر وإنما هو من كبائر الذنوب وعظائم الآثام لكنه ليس مُخرجاً من ملة الإسلام.

إذاً خصال الجاهلية متفاوتة ، أخطر شيئاً في خصال الجاهلية يقول الشيخ: «عدم ايمان القلب بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام» ؛ هذا أخطر ما يكون ، عندما يكون قلب الإنسان ليس مؤمناً بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام سواءً كل ما جاء به ، أو ليس مؤمناً ببعض ما جاء به ليس عنده قناعات ؛ هذه جاهلية خطيرة جداً ، عندما يقول بعض الناس : "أنا لست مقتنع بكذا من أمور جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام" هذا نوع من الجاهلية يصاب به قلبه أو قلوب بعض الناس ، عدم ايمان القلب ، والقلب هو الأساس ، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ ألا وهي القلب))، يقول ابو هريرة في كلام له فيه توضيح لهذا الحديث يقول: «القلب ملك ، والأعضاء جنوده؛ فإذا طاب الملك طاب الجند ، وإذا خاب الملك خاب الجند» ؛ مع أن هذا الأمر ليس بمضطرد ، يعني: قد يطيب الملك

ويفسد بعض الجند، وقد يخيب الملك ويصلح بعض الجند، أما القلب إذا صلح لا يمكن أن تتخلف الجوارح عن مراده ، وإذا فسد أيضاً هي تبع له، فهو الأمر الناهي الموجّه وبقية الجوارح هي تبع له. فإذا كان قلب الإنسان والعياذ بالله لم يؤمن بما جاء به الرسول أو ببعض ما جاء به الرسول كيف يكون فعله للخير وعنايته به؟! إذا كان القلب نفسه غير مؤمن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم !!

ولهذا أعظم أساس في بابنا هذا «باب الحذر من خصال الجاهلية»: أن يجتهد المسلم في عمارة قلبه بحب ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وحب دينه وحبه هو صلى الله عليه وسلم ، وأن يرضى قلبه بذلك ، ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسلاً)) ، وأن يبغض كل ما خالف ذلك.

وخذها قاعدة عندك ؛ كل ما خالف هدي النبي صلى الله عليه وسلم فهو جاهلية ، لأن الحق والهدى بيّنه النبي عليه الصلاة والسلام بياناً تاماً ، اقرأ ذلك في قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، فكل ما خالف هديه عليه الصلاة والسلام فهو جاهلية لأن الأمور إما حق أو باطل ، والحق

كله بيّنه النبي عليه الصلاة والسلام ، وماذا بعد الحق إلا الضلال!! ، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ

كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] الحق هو ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه. إذاً أخطر ما يكون على الإنسان في هذا

الباب عدم إيمان قلبه بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

يقول المصنف: «فإن انضاف ذلك استحسان ما عليه أهل الجاهلية تمت الخسارة» ؛ إذا اجتمع في الشخص أمرين:

الأمر الأول : عدم الإيمان أو عدم القناعة القلبية بما جاء به الرسول ، والأمر الثاني: يستحسن ما عليه أهل الجاهلية. مثل ما يقال : معجب بهم وبصفاتهم وبهيئاتهم وبتعاملاتهم وبأحوالهم وبأمورهم وبأعيادهم إلى آخره ، معجب بهم ويتبع ما هم عليه ، حتى إن بعض الناس من شدة تتبعه لما عليه أهل الجاهلية يحرص ألا يفوت التبع لما عليه أهل الجاهلية شبراً شبراً خطوة خطوة ، كلما خطو خطوة في السفه والغي والضلال خطاها معهم وتابعهم عليها ؛ يستحسن ما عليه أهل الجاهلية ، وهذه فتنة تصاب بها بعض القلوب نسأل الله العافية ، تصاب بعض القلوب بفتنة فيبدأ يتابع أهل الجاهلية في كل ما يفعلونه ؛ حتى في أمور قبيحة سيئة تنفر منها الطباع تجده يتابعهم فيها . وحتى لا نطيل اضرب مثلاً: قصات الشعر ؛ الآن يُفتن بعض الناس بما عليه أهل الجاهلية فيتابعه خطوة خطوة في قصات الشعر ، وتجده إذا ذهب إلى المشتغل بقص الشعر يعرض عليه صور لأهل الجاهلية يحدد شخصاً من هؤلاء يقول: أنا أريد مثل هذا ، والآخر يقول: لا أنا أريد هذا أفضل ، والثاني يقول: لا أنا أريد... ثم يخلقون شعورهم حلقاً محرماً . النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن القزع ، وكل أعمال الجاهلية في حلق الشعر نوع

من هذا القزع الذي نهي عنه النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فتجده لا يفعل الذي وجه إليه النبي عليه الصلاة والسلام ويتابع أهل الجاهلية في أمور تنفر منها الطباع السليمة .

وبدون مبالغة بعض قصص الشعر التي يفعلها بعض أبناء المسلمين مقلدين أهل الجاهلية بها قصص بشعة جداً ، إذا رآها الإنسان الذي عنده فطرة سليمة إن سلمه الله وإلا يكاد يستفرغ من المنظر الذي يراه من قبحه وشناعته ، ولكن لفساد القلوب وتلوث العقول والفتنة باتباع الجاهلية لا يبالى باتباعهم . هذا مثال وقس عليه أمثلة كثيرة جدا تفشوا في الناس بسبب فتنة القلوب باستحسان ما عليه أهل الجاهلية .

فإذا كان الإنسان يستحسن ما عليه أهل الجاهلية ، وفي الوقت نفسه لا يرتاح لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام لا تسأل عن هلكته وخسرانه ؛ ولهذا قال المصنف هنا: «تمت الخسارة» ؛ تمت الخسارة إذا اجتمع في الشخص أمران:

الأمر الأول : عدم الايمان بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

والأمر الثاني: استحسان ما عليه أهل الجاهلية سواء في أقوالهم أو في أفعالهم أو عقائدهم .

« كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] » انظر الآية وشاهدها في كلام المصنف ؛ المصنف ذكر أمرين تتم بهما الخسارة؛ الأمر الأول: عدم الايمان بما جاء به الرسول. والأمر الثاني: اتباع ما عليه أهل الجاهلية. النتيجة : تمام الخسران ، والآية تنص على ذلك ؛ قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ أي استحسنا ما عليه أهل الجاهلية ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ أي لم يؤمنوا بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي أولئك الذين تمت خسارتهم.

قال رحمه الله تعالى :

المسألة الأولى : أنهم يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته يريدون شفاعتهم عند الله لظنهم أن الله يحب ذلك وأن الصالحين يحبونه ، كما قال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] .

بدأ رحمه الله تبارك وتعالى بالمسألة الأولى ، وبدأ بها لأنها كبرى هذه المسائل وأخطرها وأشدّها ضرراً على الناس . قال : «المسألة الأولى : أنهم» أي أهل الجاهلية ؛ سواء أهل الكتاب أو المشركين الأميين .

قال: «أَنَّهُمْ يَتَعَبَّدُونَ بِإِشْرَاكِ الصَّالِحِينَ فِي دَعَاءِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ» واقع هؤلاء حقيقة أَنَّهُمْ أَشْرَكُوا الصَّالِحِينَ وَغَيْرِ الصَّالِحِينَ ؛ أَشْرَكُوا الصَّالِحِينَ وَأَشْرَكُوا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ وَالْأَشْجَارَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، فَأَشْرَكُوا عِبَادَ اللَّهِ الصَّالِحِينَ وَأَشْرَكُوا الْجَمَادَاتِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ شَمْسٍ أَوْ قَمَرٍ أَوْ مِثْلًا حَجَرًا أَوْ شَجَرَةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ . لَكِنْ خَصَّ الْمُؤَلَّفَ الصَّالِحِينَ بِالذِّكْرِ: لِأَنَّ عِبَادَةَ الصَّالِحِينَ أَقْرَبَ إِلَى النَّفْسِ مِنْ عِبَادَةِ الْحَجَرِ؛ لِمَاذَا؟! لِمَاذَا عِبَادَةُ الرَّجُلِ الصَّالِحِ أَقْرَبَ إِلَى النَّفْسِ مِنْ عِبَادَةِ الْحَجَرِ؟ لِأَنَّ مَكَانَةَ الصَّالِحِ فِي النَّفْسِ أَعْظَمَ مِنْ مَكَانَةِ الْحَجَرِ، وَمِنْ هُنَا دَخَلَ الشَّيْطَانُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلُنَا ، وَأَوَّلَ مَا بَدَأَ الشَّرْكَ بِدَأْ عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ ، لِأَنَّ النَّاسَ خُلِقُوا وَقُطِرُوا عَلَى التَّوْحِيدِ وَأَوَّلَ مَا بَدَأَ بِهِمُ الشَّرْكَ بِدَأْ مِنْ جِهَةِ عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ عِبَادَةَ وَدٍّ وَيَعُوقَ وَسَوَاعَ وَنَسَرَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ كَانُوا فِي قَوْمِ نُوحٍ» ؛ رِجَالٌ مَعْرُوفِينَ بِالصَّالِحِ فَلَمَّا مَاتُوا جَاءَ الشَّيْطَانُ إِلَى أَقْوَامِهِمْ وَذَكَرَهُمْ بِهَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ وَمَكَانَتِهِ وَقَالَ : إِذَا دَفَنْتُمُوهُمْ دَفْنًا عَادِيًّا سَوْفَ تَنْسَوْنَهُمْ لَكِنْ ابْنُوا عَلَى قُبُورِهِمْ أُنْبِيَةَ حَتَّى تَذَكَّرَكُمْ بِهِمْ وَأَيْضًا اصْنَعُوا لَهُمْ تَمَاثِيلَ عَلَى هَيْئَاتِهِمْ وَصُورَتِهِمْ وَأَشْخَاصِهِمْ ، فَقَطَّ مِنْ أَجْلِ إِذَا رَأَيْتُمْ تِلْكَ الْأُنْبِيَةَ وَتِلْكَ الصُّورَ ذَكَرْتُمْ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ وَذَكَرْتُمْ الْخَيْرَ الَّذِي يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ ، وَتَرَكْتُمْ هَذَا الْجِيلَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ . ثُمَّ جَاءَ لِلْجِيلِ الَّذِي بَعْدَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: إِنْ آبَائُكُمْ وَأَجْدَادُكُمْ وَضَعُوا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ وَهَذِهِ الْأَنْصَابَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَغَاثُوا بِهِمْ أُغِيثُوا وَإِذَا طَلَبُوا مِنْهُمْ سَأَلُوا ؛ فَعَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ . أَوَّلَ شَرِّكَ حَصَلَ فِي النَّاسِ كَانَتْ هَذِهِ بَدَايَتُهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ عِبَادَةَ الصَّالِحِينَ أَقْرَبَ إِلَى النَّاسِ وَأَسْهَلَ مِنْ عِبَادَةِ الْحَجَرِ ؛ لِمَكَانَةِ الصَّالِحِ فِي النَّفْسِ وَمَنْزِلَةِ الصَّالِحِ فِي النَّفْسِ ، وَلِهَذَا خَصَّ ذَلِكَ بِالذِّكْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

قال : «أَنَّهُمْ يَتَعَبَّدُونَ بِإِشْرَاكِ الصَّالِحِينَ فِي دَعَاءِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ» ، ثُمَّ يَجْعَلُونَ ذَرِيعَتَهُمْ فِي ذَلِكَ الضَّلَالِ وَالْبَاطِلِ وَالشَّرِّ بِاللَّهِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا أَرَدْنَا بِذَلِكَ الشَّفَاعَةَ «يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ لَظَنَّهُمْ أَنَّ اللَّهَ يَحِبُّ ذَلِكَ وَأَنَّ الصَّالِحِينَ يَحِبُّونَهُ» ؛ هَكَذَا يَفْتِنُ الشَّيْطَانُ النَّاسَ وَيُوقِعُهُمْ فِي شَبَكَةِ الشَّرِّ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ ؛ يُوْهِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ يَحِبُّ ذَلِكَ، أَنَّ اللَّهَ يَحِبُّ مَنْ عِبَادَهُ أَنْ يَجْعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَسْطَاءً مِنَ الصَّالِحِينَ يَبْلُغُونَهُ حَاجَاتِ النَّاسِ وَالْعِيَاذَ بِاللَّهِ ، يُوْهِمُهُمْ ذَلِكَ، وَيُوْهِمُهُمْ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ أَنَّ الصَّالِحِينَ أَيْضًا يَحِبُّونَ ذَلِكَ . وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَحِبُّ ذَلِكَ ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ أَيْضًا لَا يَحِبُّونَ ذَلِكَ ، بَلْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ كُلُّهُمْ وَالصَّالِحُونَ مِنْ عِبَادِهِ أَجْمَعُونَ عَلَى النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ .

قال : «يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ لَظَنَّهُمْ أَنَّ اللَّهَ يَحِبُّ ذَلِكَ وَأَنَّ الصَّالِحِينَ يَحِبُّونَهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] » هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الشَّرِّ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَإِذَا سُئِلُوا لِمَاذَا تَمَارَسُونَ هَذَا الشَّرَّ وَتَمَارَسُونَ هَذَا الْبَاطِلَ؟ يَقُولُونَ: «هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ»

قال : «وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] » يقول نحن لا نعبد هؤلاء الصالحين إلا من أجل أن يقربونا إلى الله ، ومن أجل أن يشفعوا لنا عند الله تبارك وتعالى ؛ ومن هنا ولج هؤلاء في الشرك ودخلوا فيه من أوسع أبوابه ؛ من هاتين الجهتين : جهة القربة ، وجهة الشفاعة . من أجل أن يقربوهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ومن أجل أن يكونوا لهم شفعاء عند الله عز وجل . فهذه من أبرز وأخطر خصال الجاهلية التي يجب على المسلم أن يعرفها من أجل أن يحذرهما وأن يتقيها .

وإذا نظرت في واقع المنتسبين إلى الإسلام تجد أن هذه الخصلة من خصال الجاهلية موجودة فيهم ، تجد الرجل أو المرأة يذهب إلى قبر الرجل الصالح وأحياناً غير الصالح ويقف أمام القبر خاشعاً باكياً متذللاً منكسراً وربما ذبح ذبيحة عند القبر ثم مَدَّ يديه إلى جهة القبر سائلاً متضرعاً طالباً من صاحب القبر نفسه يا فلان أدركني الحقي! والله بأذني سمعت امرأة تطوف في حج هذا العام وهي إلى جنب بيت الله تبارك وتعالى وتنادي بصوت عالي : "دخيلك يا محمد الحقي يا محمد" ! والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: ((إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ؛ رفعت الأقلام وجفت الصحف)).

وأحياناً بعض الكتب التي كُتبت على بعض طرق أهل الجاهلية للعوام وللجهال بأيديهم يقرؤونها؛ استغاثات شركية وتوجهات لغير الله ، حتى قرأت في بعضها كُتب فيها دعاءً يقال عند زيارة قبر أحد الأولياء قال: "تذهب إليه متطهراً، وتقف أمام قبره خاشعاً خشوعك في الصلاة ، وتنحني قليلاً إلى جهته ثم تناديه باكياً : يا سيدي فلان أنا ببابك أنا لاأئذُ بجناحك أنا واقف بأعتابك إن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي! ، أنا عبدك الكسير وفلان الدليل وبك المستجير إلى آخره.." هذا ما هو؟! أي شيء هذا؟! أليس هذا هو أبرز خصلة كانت في الجاهلية وبُعث نبينا عليه الصلاة والسلام لمحاربتها وتخليص الناس منها؟! ثم يأتي دعاة الباطل إلى هؤلاء ويقولون لهم: هذا العمل هو العمل الصحيح الذي تقومون به ، هذه شفاعة ، أنتم تنادون هؤلاء وتستغيثون بهم من أجل أن يشفعوا لكم عند الله فرجعوا إلى الأمر نفسه ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] رجعوا إلى الأمر نفسه ﴿إِلَّا يُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ولهذا لما جهل الناس هذه الخصلة من خصال الجاهلية وقع بعضهم وعددٌ منهم فيها من حيث يظنون أنهم على الحق وعلى الهدى .

قال رحمه الله تعالى :

وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى بالإخلاص وأخبر أنه دين الله الذي أرسل به جميع الرسل وأنه لا يقبل من الأعمال إلا الخالص ، وأخبر أن من فعل ما استحسنا فقد حرم الله

عليه الجنة ومأواه النار . وهذه هي المسألة التي تفرّق الناس لأجلها بين مسلم وكافر ، وعندها وقعت العداوة، ولأجلها شرع الجهاد كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] .

قال رحمه الله منبه على خطورة هذه المسألة: «وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم» وهنا يتألم المسلم الناصح غاية الألم إذا وجد أن أعظم مسألة خالف فيها الرسول صلى الله عليه وسلم يوجد في المنتسبين للإسلام من يمارسها هي بعينها بنفس العمل الذي كان يمارسه أولئك .

قال: «وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأتى بالإخلاص» أي أتى بالإخلاص بدل الشرك الذي كانوا عليه والتنديد الذي كانوا يمارسونه. فأتى بالإخلاص ، والإخلاص : هو إفراذ الله تبارك وتعالى بالعبادة ، لأن الإخلاص في اللغة : من الخالص وهو الصافي النقي ؛ بمعنى أن تكون العبادة من دعاء واستغاثة ورجاء وذبح وغير ذلك لله رب العالمين لا شريك له ، كما قال الله عز وجل ﴿قُلْ إِن صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢-١٦٣] ؛ فُبعث عليه الصلاة والسلام بالإخلاص ، قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ، قال جل وعلا ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

«وأخبر أنه دين الله الذي أرسل به جميع الرسل» كما قال تعالى ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] ، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ، وكما قال جل وعلا: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ التَّنْذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١] أي كلهم على هذا الأصل «ألا تعبدوا إلا الله»، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وفي الحديث الصحيح قال صلى الله عليه وسلم: ((نحن الأنبياء أبناء علات ديننا واحد وأمهاتنا شتى)) أي عقيدتنا واحدة ؛ عبادة الله عز وجل مخلصين له الدين ، وأمهاتنا شتى : أي الأعمال والشرائع قد تختلف من نبي إلى آخر كما قال عز وجل ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨] .

قال : «وأنه لا يقبل من الأعمال إلا الخالص» أنه لا يقبل -أي الله عز وجل- من الأعمال إلا الخالص ؛ ولهذا قال في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقال عز وجل في

الحديث القدسي: ((أنا أغني الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً)) أي: أي عمل كان ؛ دعاء ، رجاء ، ذبح ، نذر ، صلاة ، صيام ، حج ((من عمل عملاً)) عملاً هنا نكرة في هذا السياق فهي تعم كل عمل ، ((من عمل عملاً)) أي: أي عمل من الأعمال أشرك مع الله فيه غيره أياً كان هذا الغير تركه الله عز وجل وشركه . وهذا يدل على أن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه وابتغاء لمرضاته سبحانه وتعالى .

«وأخبر أن من فعل ما استحسنوا فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار»؛ وأخبر أي النبي عليه الصلاة والسلام أن من فعل ما استحسنوا أي ما استحسنته أهل الجاهلية من تلك العبادات الباطلة واتخاذ الأنداد من الصالحين والأولياء أو غيرهم فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ؛ وهذا دلّ عليه القرآن ودلت عليه السنة في القرآن ، في القرآن قال تعالى ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢] ، وفي السنة قال عليه الصلاة والسلام: ((من مات وهو يدعو من دون الله نداءً دخل النار)) ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ثم قال رحمه الله: «وهذه المسألة التي تفرّق الناس لأجلها بين مسلم وكافر» المسلم هو المخلص ، والكافر هو المتخذ للأنداد بأي صيغة كانت وبأي مبرر كان. اتخاذ الأنداد شركٌ سواء سماه من مارسه «شفاعة» أو سماه «قربة» أو سماه «توسلاً» أو سماه بأي اسم كان الشرك يبقى شركاً وإن غُيّر مسماه ، تغيير المسميات لا يغير الحقائق هذه قاعدة ؛ الآن مثلاً لو أن شخصاً سَمِيَ الربا "فوائد بنكية" لا يشملها قول الله تعالى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أو يشملها؟! أو شخصٌ سَمِيَ الرشوة التي لعن النبي صلى الله عليه وسلم فاعلمها ((لعن الله الراشي والمرتشي)) قال هذه يا أخي إكرامية ، هل تسميتها إكرامية يلغي الحكم واللعن الذي ورد في الحديث؟! لا. أيضاً الخمر يقول هذه مشروبات روحية ، هل هذا الحكم أو هل هذه التسمية تلغي الحكم؟ لا. أيضاً شخص يمد يديه إلى غير الله ويقول: أنا لائذ بك ، أنا منكسرٌ عند بابك ، أنا لائذٌ بجانبك أنقذني أدركني الحقني إلى آخره .. وإذا قيل له ما هذا؟! قال :هذا توسل! هل يلغي الحكم لكونه سَمِيَ هذا الشرك توسلاً؟! فتغيير الأسماء لا يغير الحقائق ، الشرك شركٌ وإن غُيّر اسمه، حتى وإن سماه صاحبه شفاعاً أو توسلاً . العبادة ومنها الدعاء حق لله ، لا يدعى إلا الله ((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)) هذا أصل لا نزاع فيه وأمرٌ واضح بيّن ، فمن دعا غير الله واستغاث بغير الله ولجأ إلى غير الله تبارك وتعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا فهذا اتخذ نداءً مع الله تبارك وتعالى ولا يعفيه من تبعة ذلك كونه يسميه توسلاً أو يسميه شفاعاً أو يسميه قربة أو غير ذلك من الأسماء .

قال: «وهذه المسألة التي تفرّق الناس لأجلها بين مسلم وكافر» ؛ المسلم هو المخلص . والكافر هو الذي اتخذ مع الله الأنداد والشركاء. ولهذا في تمام الآية الأولى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى

اللَّهُ زَلْفَى ﴿﴾ قال في تمامها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ سمي عملهم هذا كفرًا بالله تبارك وتعالى.

قال: «وعندها وقعت العداوة» عند هذه المسألة وقعت العداوة ؛ بين من ومن؟ بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام دعاهم ليخلصوا العبادة لله جل وعلا ويوحّدوا الله بالعبادة ويتركوا عبادة الأنداد من الصالحين والملائكة والأنبياء والأشجار والأحجار وغيرها وقال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله ثقلحوا)) داعياً لهم إلى التوحيد والإخلاص فماذا كان الجواب؟ قالوا ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:١٥] وايضاً تواصلوا بينهم على البقاء على تلك العبادة الباطلة ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنِ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿﴾ [ص:٦٠-٧] هذا افتراء ما علمنا في الملة الآخرة، وسيأتي ذكر هذا الأمر من مسائل الجاهلية يستدلون على الباطل الذي هم عليه بأنهم ما عرفوه في الملة الآخرة أي: ما عرفوه فيمن سبقهم . بعض الناس يُنكر عليه بعض الشرك أو بعض البدع ويقول: منذ نشأنا والآباء والأجداد ما نعرف هذا الذي تدعوا إليه ؛ فيرفض التوحيد ويرفض السنة بحجة أنه ما عرفه فيمن قبله ومن سبقه ، ويكون من سبقه على جاهلية أو على ضلال . وهذه مسألة سيأتي حديث المصنف رحمه الله تعالى عنها.

قال: «ولأجلها -أي لأجل هذه المسألة- شرع الجهاد ، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] « والفتنة كما فسرهما بذلك ابن عباس وغيره : هي الشرك بالله ، قال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي حتى لا يكون في الناس شرك بالله عز وجل واتخاذاً للأنداد ، وهذه أعظم ذنب وأعظم معصية يقع الناس فيها ﴿وَيَكُونِ الدِّينُ كُلُّهُ لِّلَّهِ﴾ أي يكون الناس موحدين مخلصين لله تبارك وتعالى بعيدين عن الشرك. (قاتلوهم) من أجل ماذا؟ من أجل (أن لا تكون فتنة) أي لا يكون شرك بالله عز وجل (ويكون الدين كله لله) .

الشاهد أن هذه هي المسألة الأولى ، وهي أعظم المسائل وكبرى المسائل التي خالف النبي عليه الصلاة والسلام أهل الجاهلية ؛ والواجب على المسلم أن يعرف هذه المسألة معرفةً جيدة وأن يكون منها على حذر ، وأن يسأل الله تبارك وتعالى العظيم رب العرش العظيم أن ينجيه من هذه الخصلة التي هي أشد وأخطر خصال أهل الجاهلية ، وأن ينجيه من خصال أهل الجاهلية عموماً فإنه تبارك وتعالى الموفق والهادي لا شريك له . ومن الدعاء المأثور عنه صلوات الله وسلامه عليه في هذا الباب «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم» وكان ايضاً يقول في دعائه صلوات الله وسلامه عليه كل صباح «اللهم إني أعوذ بك من الكفر ومن الفقر وأعوذ

بك من عذاب القبر» ، والأدعية الماثورة عنه في هذا المعنى كثيرة ، ومن هذا القبيل أيضاً دعاء ابراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦] .
والله تعالى أعلم وصل الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.